المعرف الرقمي DOI
https://doi.org/10.59151/namajournal.v10i1.521

OPEN ACCESS
تاريخ الاستلام: 17-8-2024
تاريخ القبول: 3-9-2024

دورية نماء
فصلية محكمة متخصصة في علوم الوحي والدراسات الإنسانية

عن الهوية الشخصية[1]

ديفيد هيوم[2]

ترجمة: رضوان العصبة[3]

radouane.elasba@uit.ac.ma

مراجعة: أحمد مصلح[4]

الملخص:

تقوم الهوية على علاقات الأفكار؛ وهذه العلاقات سبيلها أن تخلق الهوية بالانتقال السهل الذي تعمله. ولكن، لما هي كانت العلاقات وسهولة الانتقال قد تتناقص تناقصًا يعتاص الإحساس بدرجاته، فإنه يَعْسر أن نستملك معيارًا صحيحًا يمكننا من حل أي نقاشٍ يخص الوقت حين تتحصَّل حق اسم الهوية أو تفقده. ومتى كان ذلك كذلك، وكانت جميع الأسئلة المُحْكَمة والدقيقة عن الهوية الشخصية لا يمكن البت فيها أبدًا، فقد وجب -لأجل هذا الذي ذكرنا- عدها صعوباتٍ نحويةً لا صعوباتٍ فلسفيةً؛ فإن جميع النقاشات عن هوية الأشياء المتصلة غير المنقطعة هي مجرد نقاشاتٍ لفظيةٍ، باستثناء مبدأ اتحادٍ خيالي أو وهمي تسوق إليه العلاقة بين الأجزاء.

الكلمات المفتاحية:

الهوية، العلاقة، الهوية الشخصية، الهوية العددية، الهوية النوعية.

(1) هذا المقال مأخوذٌ من كتاب:
David Hume, *A Treatise of human nature*, Vol. I, Edited by Ernest Rhys, Everyman's Library, P: 238- 249.

(2) ديفيد هيوم (1711- 1776) فيلسوف ومؤرخ بريطاني (أسكتلندي).

(3) طالب باحث بسلك الدكتوراه، مختبر الإنسان والمجتمع والقيم، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المغرب.

(4) أستاذ الفلسفة وتاريخ العلوم، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المغرب.

للاقتباس: هيوم، ديفيد، عن الهوية الشخصية، ترجمة: رضوان العصبة، مراجعة: أحمد مصلح، مجلة نماء، مركز نماء، مصر، مج 10، ع 1، 2026، 210-224.

© نشر هذا البحث بموجب ترخيص (CC BY-NC4.0) المفتوح، الذي يسمح لأي شخص تنزيل البحث وقراءته والتصرف به مجانًا، مع ضرورة نسبته إلى صاحبه بطريقة مناسبة، مع بيان إذا ما قد أُجري عليه أي تعديلات، ولا يمكن استخدام هذا البحث لأغراض تجارية.

OPEN ACCESS
Received: 2024-8-17
Accepted: 2024-9-3

دورية نماء
فصلية محكمة متخصصة في
علوم الوحي والدراسات الإنسانية

Of Personal Identity(5)

By: David Hume(6)

Translated by: Redhwan Al-Asabah(7)

Elasba103@gmail.com

Revised by: Ahmed Musleh(8)

Abstract:

Identity is based on relationships of ideas, and these relationships create identity through the easy transition they make. However, since relationships and ease of transition may diminish in degrees that are difficult to sense, it is difficult to have a correct criterion to settle any discussion of time when the right to the name of identity is acquired or lost. And when this is so, and all the precise and accurate questions of personal identity can never be decided, it is necessary - for this reason - to regard them as grammatical difficulties, not philosophical. All discussions of the identity of unbroken connected things are merely verbal discussions, except for the principle of an imaginary or illusory union to which the relation between the parts leads.

Keywords:

Identity, Relationship, Personal Identity, Numerical Identity, Qualitative Identity

(5) This article is taken from:
David Hume, A Treatise of human nature, Vol. I, Edited by Ernest Rhys, Everyman's Library, P: 238- 249.

(6) David Hume (1711-1776) British (Scottish) philosopher and historian.

(7) PhD student, Laboratory of Man, Society and Values, Faculty of Humanities and Social Sciences, Ibn Tofail University, Kenitra, Morocco.

(8) Professor of Philosophy and History of Science, Faculty of Humanities and Social Sciences, Ibn Tofail University, Kenitra, Morocco.

ite this article as: Hume, David, Of Personal Identity, trans: Redhwan Al-Asabah, Revised by: Ahmed Musleh, Journal of Namaa, Nama Center, Egypt, V 10, issue 1, 2026, 210-224.

© This research is published under an open license (CC BY-NC 4.0), which allows anyone to download, read and use the research for free, provided it is properly acknowledged, indicating if any modification has been made to it. This research shall not be used for commercial purposes

مقدمة:

يرى هيوم أن الذاتَ ليست سوى حزمةٍ أو مجموعةٍ من الإدراكات المختلفة التي تتعاقب بسرعةٍ هائلةٍ، وهي في تدفقٍ وحركةٍ دائمين؛ فإنه ليست توجد في العقل البتة بساطةٌ في زمنٍ ما، ولا هوية في زمنٍ آخر، مهما كان الميل الطبيعي الذي قد يكون لنا أن نتخيل تلك البساطة والهوية؛ بل إن ما يوجد في العقل هو العلاقة، أعني علاقةً بين الإدراكات. وأمْرُ العلاقة أن تُسَهِّل انتقال العقل من شيءٍ إلى آخر، فتجعل مرورَه سلسًا سهلًا كأنه يتأمل شيئًا واحدًا مستمرًّا لأجل التشابه الذي بين الأشياء. وهذا التشابه هو سبب الخلط والخطأ، يجعلنا نستبدل مفهوم الهوية بمفهوم الأشياء المترابطة. ولما كان كذلك، فإنه يغلب أن نخلط بين الهوية والعلاقة.

واعلم أن ميلنا إلى الخلط بين الهوية والعلاقة يكون كبيرًا جدًّا، حتى إننا نميل إلى تخيل شيءٍ غير معروفٍ وغامضٍ، يربط الأجزاء، إلى جانب علاقتها. ومتى صح عندنا هذا الذي ذكرنا، كان شغلُ هيوم الرئيس البرهنةَ على أن كل الأشياء التي ننسب لها هويةً، إنْ نحن ما اكترثنا بثباتها واتصالها، إنما تقوم هي على توالي أشياء مترابطةٍ. وإذا تقرر هذا، فإن الهوية ليست في الواقع شيئًا ينتمي إلى الإدراكات المختلفة، ويوحدها معًا، ولكنها مجرد صفة ننسبها إليها، بسبب اتحاد أفكارها في الخيال عندما نتأملها. وما يوهمنا بهذه الصفة إنما هي علاقاتٌ ثلاثةٌ، قد تقدمت فعلمتَ أولها التشابه، وبقي لك أن تعلم ثانيها وثالثها، عنيتُ التجاور والسببية.

قد تحصل أن الهوية تقوم على علاقات الأفكار؛ وهذه العلاقات سبيلها أن تخلق الهوية بالانتقال السهل الذي تعمله. ولكن، لما هي كانت العلاقات وسهولة الانتقال قد تتناقص تناقصًا يصعب الإحساس بدرجاته ويشُقُّ، فإنه يَعْسر أن نملك معيارًا صحيحًا نصير به إلى حل أي نقاشٍ يخص الوقت حين تكسب حق اسم الهوية أو تفقده. ومتى كان ذلك كذلك، وكانت جميع الأسئلة المُحْكَمة والدقيقة عن الهوية الشخصية لا يمكن البت فيها أبدًا، فقد ينبغي، لأجل ذلك، عدها صعوباتٍ نحويةً لا فلسفيةً.

وإذا كان هذا النص الذي نترجمه لك قد تقدَّم عبد الكريم ناصيف فترجمه، لما هو ترجم كتاب ديفيد هيوم **مصنف في الطبيعة الإنسانية**، فإنَّا نعيد ترجمته هاهنا لأجل أمرين اثنين: **أولًا**؛ لأجل أن نص «عن الهوية الشخصية» قد عرت ترجمته كثرةٌ من الأخطاء لا تكاد هي أن تغادر كل فقرةٍ من فقراته، فصار النص مستغلقًا على الفهم ملتبسًا متعذرًا. ولما هو كان النص مستغلقًا في لغته الأصل، فقد انضاف ذا الاستغلاق إلى آخر جنته الترجمة جني قصورٍ وتسرعٍ لا جني تصرفٍ وتبيئةٍ.

وثانيًا: لأجل التنبيه إلى الأهمية التي صار هو ينالها سؤال الهوية الشخصية في الفلسفة والعلم المعاصرين نوْلًا يعْظُم هو تلك التي نالها في الفلسفة والعلم الحديثين؛ فإنه لا مبحث من المباحث المعاصرة إلا تربطه اليومَ رابطةٌ بالذات، ومتى هي حضرت الذات فثمة الهوية الشخصية؛ وقد تعلم أن هيوم ما كان ممكنًا له إنكار الهوية الشخصية إلا بإنكار الذات.

النص المترجم:

موجودون هم بعضُ الفلاسفة الذين يتوهمون أننا ندرك في كل لحظةٍ يقينيَّ الإدراك ما نسميه ذاتَنا؛ وأننا نشعر بوجودها واستمراريتها في الوجود؛ وهم متيقنون يقينًا يفوق الدليل البرهاني، من هويتها الكاملة وبساطتها[9]. يقولون إن الإحساس الأقوى، والعاطفة العُنْفى[10]، بدل أن يصرفا انتباهنا عن هذا الرأي، فإنهما ليس يعملان إلا على ترسيخه أقوى ترسيخٍ، ويجعلاننا نفكر في تأثيرهما على الذات، تأثير تألمٍ أو تلذذٍ. إن محاولة تقديم دليلٍ آخر على ذلك إنما هي إضعافٌ لبداهته؛ لأنه لا دليل يمكننا استخلاصه من حقيقةٍ نعيها باطنيًّا؛ ولا شيء يكون لنا يقينيًّا إذا نحن شككنا في ذلك.

والذي يسوء حظهم أن كل هذه الإثباتات الإيجابية تتعارض مع تلك الخبرةِ عينِها التي يحتجون بها لأجلهم؛ فلسنا نملك أيَّ فكرةٍ عن الذات، حسب الطريقة الموضحة هاهنا؛ لأنه من أي انطباع يمكن اشتقاقُ هذه الفكرة؟ أمرٌ مستحيلٌ هو الإجابة عن هذا السؤال دون تناقضٍ وسخافةٍ واضحين[11]؛ ومع ذلك، فهو سؤالٌ يجب الإجابة عنه ضرورةً، إذا نحن أردنا أن تكون فكرةُ الذات واضحةً ومعقولةً. يجب أن يوجد انطباعٌ واحدٌ مخصوصٌ يخلق كلَّ فكرةٍ حقيقيةٍ. لكن الذات أو الشخص ليس أيَّ انطباعٍ واحدٍ، بل هو ذاك الانطباع الذي فَرْضُه أن ترجع إليه انطباعاتنا وأفكارنا المتعددة. وإذا كان هو يوجد أيُّ انطباعٍ يخلق فكرةَ الذات، فيجب أن يظل هذا الانطباعُ هو نفسَه دونما تغير، طول مسار حياتنا بأكمله[12]؛ لأن الذاتَ فَرْضُها أن توجد بهذه الطريقة. ولكن ليس يوجد انطباعٌ ثابتٌ وغيرُ

(9) يرى ماكناب، في كتابه ديفيد هيوم: نظريته في المعرفة والأخلاق، أن الفلاسفة الذين يقصدهم هيوم هاهنا إنما هم الفلاسفة التجريبيون لا الفلاسفة العقلانيون الميتافيزيقيون. انظر:

D. G. C. MacNabb, *David Hume: His Theory of Knowledge and Morality*, Archon Books, Hamden, Connecticut, First Published 1951, Second Edition 1966, P: 146.

(10) مؤنث اسم التفضيل «أعنف». انظر: عباس حسن، النحو الوافي، الجزء الثالث، دار المعارف، مصر، ص: 414.

(11) يريد القول إن فكرة الذات معدومةٌ غيرُ موجودةٍ لأجل انعدام الانطباع، أعني انطباعها، ما دامت كلُّ فكرةٍ، في فلسفة هيوم، لا بد هي تصدر عن انطباعٍ.

(12) انطباع الذات ممتنعٌ لسببين: 1) ليست الذاتُ أيَّ انطباعٍ واحدٍ، بل هي ذاك الانطباع الذي فَرْضُه أن ترجع إليه انطباعاتنا وأفكارنا المتعددة. 2) إذا كان هو يوجد انطباعٌ يخلق فكرة الذات، فيجب أن يظل هذا الانطباعُ هو نفسَه دونما تغير، مَدةَ حياتنا بأكملها؛ ولكنه معلومٌ لك ألَّا انطباعَ ثابتٌ غيرُ متغير.

متغيرٍ. إن الألم واللذة، الحزن والفرح، العواطف والأحاسيس يعقب بعضُها البعضَ، وليس توجد كلها في الوقتِ نفسِه. ولما كان كذلك، فلا يمكن أن نشتق فكرةَ الذات من أي واحدٍ من هذه الانطباعات، أو من أي انطباعٍ آخر؛ وبالتالي، ليس يوجد مثلُ هذه الفكرة.

بَلْهَ[13]، ما مصير جميع إدراكاتنا الخاصة حسب هذه الفَرْضية؟ إن كل هذه الإدراكات[14] مختلفةٌ ومتمايزةٌ ومنفصلٌ بعضُها عن البعض، ويمكن التفكير فيها منفصلةً، ويمكن أن توجد منفصلةً، وليس تحتاج ما يدعم وجودَها. إذن، بأي طريقة تنتمي إلى الذات؟ وكيف ترتبط بها؟ من جهتي، عندما أغوص في أعماقِ ما أسميه ذاتي، أقع دائمًا على هذا الإدراك أو ذاك: الحرارة أو البرودة، الضوء أو الظل، الحب أو الكره، الألم أو اللذة. لا أستطيع أبدًا الإمساكَ بذاتي في أي وقتٍ دون إدراكٍ، ولا أستطيع أبدًا ملاحظةَ أي شيء سوى الإدراك. وعندما تزول إدراكاتي في أي وقتٍ، زوالَها بالنوم العميق، فإنني سأظل المدةَ تمامَها غير شاعرٍ بذاتي، ويمكن أن يقال حقًا إنني غيرُ موجودٍ. ومتى أزال الموتُ كلَّ إدراكاتي، فلا أستطيع أن أفكر، أو أحس، أو أرى، أو أحب، أو أكره، بعد انحلال جسدي، فإنني سوف أبيد كلَّ بيدودةٍ، ولستُ أستطيع أن أتصور شيئًا آخر ضروريًّا لكي يجعلني عدمًا تامًّا. إذا هو اعتقد أيُّ شخصٍ، بعد تفكيرٍ جدي وغير متحيز، أنه يملك فكرةً مختلفةً عن ذاته، فيجب أن أعترف أنني لستُ أستطيع مجادلته البتة. وغاية ما يمكن أن أُجِيزَه هو أنه قد يكون مُحِقًّا مثلي مصيبًا، وأننا مختلفان في هذا

(13) تفيد معاني كثيرة، ومعناها هاهنا: فضلًا عن ذلك. أُنظر: الحسن بن قاسم المرادي، الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، بيروت- لبنان، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1992، ص: 425.

(14) ليس يوجد، عند هيوم، تمييزٌ محددٌ بين الإدراك والموضوع، لأننا لا نستطيع الوصول إلى الموضوعات إلا بالإدراك. وأمرٌ مستحيلٌ هو معرفة طبيعة الأشياء أو معرفة إن كانت توجد أشياء خارج العقل. بله إن مسألة العلاقة بين الشيء وتمثله العقلي لا موضوع لها. إن علم الطبيعة البشرية ليس يكون ممكنًا إلا لأنه قرر تجاهل هذا السؤال وتمسك بالمظاهر المحسوسة وبترابط الإدراكات: «أما الانطباعات التي تأتي من الحواس، فإن سببها الأقصى، في رأيي، ليس يمكن تفسيره بالعقل البشري أتمَّ تفسيرٍ، وسيكون أمرًا محالًا دائمًا أن نقرر التقريرَ أيقنَه إن كانت هي تأتي مباشرة من الموضوع، أو إن كانت هي تنتجها القوة الإبداعية للذهن، أو إن كانت هي تأتي من خالق وجودنا. ثم إن مثل هذا السؤال ليس يهم غرضنا الحالي. يمكننا استخلاص استنتاجات من ترابط إدراكاتنا، سواء أكانت صادقة أم كاذبة، وسواء أكانت تمثل الطبيعة بدقة أم كانت مجرد أوهامٍ للحواس».

Frédéric Brahami, «La généalogie du moi dans la philosophie de Hume: L›identité personnelle», in *Revue philosophique de la France et de l'étranger*, Presses Universitaires de France, 2001/2 Tome 126, P: 170.

David Hume, *A Treatise of human nature*, Vol. I, Edited by Ernest Rhys, Everyman's Library, P: 87.

أُنظر أيضًا: ديفيد هيوم، رسالة في الطبيعة البشرية، ترجمة عبد الكريم ناصيف، دمشق - سورية، دار الفرقد، الطبعة الأولى، 2016، ص: 105.

يقول ديفيد فيت نورتون «تبنى هيوم الرأي القائل إن الأشياء المباشرة للذهن إنما هي دائمًا الإدراكات، لأنه اعتقد أنها صادقةٌ، وبرغم أنها تَسُوق إلى الشك في العالم الخارجي. ولما كان هيوم مقتنعًا أن معركة إنشاء روابطَ موثوقةٍ تمامًا بين الفكر والواقع قد خضناها فخسرناها، فهو لم يحاول أيَّ محاولةٍ لتفسير كيف ترتبط انطباعات الإحساس بأسبابها غير المعروفة تمامًا. وبدلًا من ذلك ركز التركيز أخصَّه على الإدراكات باعتبارها موضوعات الذهن». انظر:

David Fate Norton, «Hume», in *The Cambridge Dictionary of Philosophy*, General Editor: Robert Audi, Second edition, Cambridge University Press, 1995, 1999, P: 399.

الأمر الاختلاف كلَّه. ربما يدرك شيئًا بسيطًا ومستمرًّا، يسميه هو ذاتَه؛ على الرغم من أنني متأكدٌ من عدم مثل هذا المبدأ في داخلي.

ولكن، إذا نحن غضضنا الطرف عن بعض الميتافيزيقيين من هذا النوع، فإنني قد أجرؤ فأوكد، لبقية البشرية، أن **الذاتَ ليست سوى حزمةٍ أو مجموعةٍ من الإدراكات المختلفة، التي تتعاقب بسرعةٍ هائلةٍ، وهي في تدفقٍ وحركةٍ دائمين**. ليس يمكن أعيننا أن تدور في محاجرها دون تغيير إدراكاتنا. إن فكرنا يظل أكثر تغيرًا من رؤيتنا؛ وجميع حواسنا ومَلَكاتنا الأخرى تسهم في هذا التغير؛ وليس توجد قوةٌ واحدةٌ للنفس تظل كما هي دونما تغير، ربما للحظةٍ واحدةٍ. إن الذهن[15] هو ضَرْبٌ من المسرح، حيث تظهر عدةُ إدراكاتٍ على التوالي؛ تمر، ثم تمر، فتنسحب بعيدًا، ثم تختلط في تنويعةٍ لا متناهيةٍ من الوضعيات والمواقف. ليس توجد في الذهن البتة بساطةٌ في وقتٍ ما، ولا هويةٌ في وقتٍ آخر، مهما كان الميل الطبيعي الذي قد يكون لنا أن نتخيل تلك البساطة والهوية. يجب ألا تضللنا المقارنة بالمسرح؛ فإنها الإدراكات المتعاقبة فقط التي تكوّن الذهن تشكّله؛ ولا نملك أقصى تصورٍ عن المكان حيث تجري هذه المشاهد، أو عن المواد التي يتكون منها.

إذن، ما هذا الذي يمنحنا هذا الميلَ الكبيرَ أن نَهَبَ هذه الإدراكاتِ المتعاقبةَ هويةً، وأن نفترض أننا نمتلك وجودًا ثابتًا وغيرَ منقطعٍ طول مسار حياتنا بأكمله؟ لمكان الإجابة عن هذا السؤال لا بد من التمييز بين الهوية الشخصية، تلك التي تخص فكرنا أو خيالنا[16]؛ والهوية الشخصية، تلك التي تخص عواطفنا أو الاهتمام الذي نوليه أنفسَنا. الأولى هي موضوعنا الحالي[17]؛ وإرادةَ تفسيرِها التفسيرَ الوافي، يجب أن نفكر في الأمر التفكيرَ عميقَه، وأن نفسِّر تلك الهوية التي ننسبها إلى النباتات والحيوانات؛ فإنه يوجد تشابهٌ كبيرٌ بين هوية هذه وهوية الذات أو الشخص.

---

(15) يميز هيوم بين العقل (الفاهمة أو الذهن) والخيال، فيقول إن مبدأ الخيال يخبرنا أن إدراكاتنا المتشابهة تملك وجودًا مستمرًّا وغير متقطع وأنها ليس تزول متى غابت، أي إنها تظل موجودةً حتى عندما تغيب عن الحواس؛ ومبدأ التفكير يخبرنا أن إدراكاتنا المتشابهة نفسها متقطعةٌ في وجودها ومختلفٌ بعضها عن بعض. ولكنه يرى أن العقل قد يضطر فيتبنى المبدأين معًا. انظر:
David Hume, *op. cit.*, P: 207, 209; 211- 212.

يقول هيوم: «عندما نتتبع شيئًا ما في تغيراته المتعاقبة التتبعَ التدريجيَّ، فإن تقدمَ الفكر السلسَ يجعلنا ننسب هويةً إلى التعاقب؛ لأنه بفعلٍ للذهنِ مماثلٍ نفكر في شيء غير متغير. وعندما نقارن حاله بعد تغيرٍ كبيرٍ، فإن تقدم الفكر ينقطع؛ وبالتالي تَعْرِض لنا فكرة التنوع؛ ولمكان التوفيق بين التناقضات يميل الخيال إلى اختلاق شيء غير معروف وغير مرئي، والذي فَرْضُه أن يستمر هو نفسه في ظل كل هذه التغيرات؛ ويُسَمَّى هذا الشيء غير المفهوم جوهرًا، أو مادة أصلية وأولية».
Ibid., P: 211- 212.

(16) إن الهوية الشخصية نوعان: هوية شخصية يخلقها الفكر أو الخيال، وهوية شخصية تخلقها العواطف أو الزهو.

(17) أُنظر في هذا الصدد:
Raymond Martin, John Barresi, «Introduction: Personal Identity and What Matters in Survival: An Historical Overview», in *Personal Identity*, Edited by Raymond Martin and John Barresi, Blackwell Publishing, 2003, P: 45.

نحن نملك فكرةً متميزةً عن شيءٍ Object يظل ثابتًا وغيرَ منقطعٍ خلال تغيرٍ زمنيّ مفترضٍ؛ وهذه الفكرة نسميها فكرةَ الهوية أو العينية. ونملك أيضًا فكرةً متميزةً عن العديد من الأشياء -Ob jects المختلفة الموجودة على التوالي، والمتصلة معًا بعلاقةٍ وثيقةٍ؛ وهذا يمنح نظرًا دقيقًا تصورًا كاملًا عن التنوع كأنه ليس يوجد أيُّ شكلٍ من أشكال العلاقة بين الأشياء. ولكن، على الرغم من أن هاتين الفكرتين، فكرةَ الهوية، وفكرةَ متواليةٍ من الأشياء المترابطة، متمايزتان في ذاتهما تمامًا، بل متناقضتان، فإنه أمرٌ مؤكدٌ هو أنهما يَعُمُّ أن تختلط الواحدة منهما بالأخرى في طريقةِ تفكيرنا المشتركةِ. إن فعل الخيال الذي به نتأمل في الشيء غير المنقطع والثابت، وذاك الذي به نتأمل في تعاقب الأشياء المتصلة، يكادان هما أن يكونا متماثلين للإحساس؛ وليس يتطلب الأمر جهدًا فكريًّا في الحالة الأخيرة يكبر كثيرًا الحالة الأولى. تُسَهِّل العلاقة انتقال الذهن من شيءٍ إلى آخر، وتجعل مروره سلسًا كأنه كان يتأمل شيئًا واحدًا مستمرًّا. وهذا التشابه هو سبب الخلط والخطأ، ويجعلنا نستبدل مفهوم الهوية بمفهوم الأشياء المترابطة. ومهما قد نعتقد في لحظةٍ ما التعاقبَ المترابط متغيرًا أو متقطعًا، فنحن متيقنون في اللحظة الموالية أننا سننسب إليه هويةً كاملةً، فنعدّه ثابتًا وغيرَ منقطعٍ. إن ميلنا إلى هذا الخطأ كبيرٌ جدًّا بسبب التشابه الذي تقدمنا فذكرناه، حتى إننا نقع فيه قبل أن ندركه؛ وبرغم أننا نصحح أنفسنا باستمرارٍ ونعود إلى منهجِ تفكيرٍ أكثر دقةً، فإننا لا نستطيع أن نحفظ فلسفتنا فترةً من الزمن طويلةً، أو أن نزيل هذا التحيز من الخيال. إن حيلتنا الأخيرة هي الاستسلام له، والتأكيد بجرأةٍ على أن هذه الأشياء المختلفة المترابطة هي نفسُها في الواقع، مهما كانت متقطعةً ومتغيرةً. وإرادة تبريرِ هذا الخُلْف لأنفسنا، يَغْلُب أن نختلق مبدأ جديدًا وغيرَ معقول، يربط الأشياء بعضَها ببعضٍ، ويمنع انقطاعها أو اختلافها. وبالتالي، نختلق الوجود المستمر لإدراكات حواسنا، لأجل نفي الانقطاع؛ فنلجأ إلى مفهوم الروح والذات والجوهر إراغةَ إخفاء التغير. ولكنَّا قد نلاحظ أيضًا أنه عندما لا نخلق مثل هذا الخيال، فإن ميلنا إلى الخلط بين الهوية والعلاقة يكون كبيرًا جدًّا، حتى إننا نميل إلى تخيل شيء غير معروف وغامض، يربط الأجزاء، إلى جانب علاقتها؛ وهذا أظنه هو الأمر نفسه يصدق على الهوية التي ننسبها إلى النباتات والخضْرَوات. وحتى عندما لا يحدث هذا، نظل نحن نشعر بميلٍ إلى الخلط بين هذه الأفكار، على الرغم من أننا لسنا قادرين على إرضاء أنفسنا في هذا الأمر كلَّ الرضى، ولسنا نجد أيَّ شيء ثابت وغير منقطع يبرر تصورنا الهويةَ.

وبالتالي، فإن الجدل على الهوية ليس نقاشاً لفظيًّا فحسب؛ لأننا عندما ننسب الهويةَ، بمعنى غيرِ ملائمٍ، إلى أشياء متغيرةٍ أو متقطعةٍ، فإنَّ خطأنا ليس يقتصر على التعبير، بل يَكْثُر أن يكون مصحوبًا

بتخيلٍ، إما بتخيل شيء ثابتٍ وغيرِ متقطعٍ، وإما بتخيل شيء غامضٍ وغيرِ قابلٍ للتفسير، أو يكون مصحوبًا على الأقل بميلٍ إلى مثل هذه التخيلات. والذي يكفي إثباتَ هذه الفَرْضية إثباتًا يُرْضي كلَّ باحثٍ مُنْصِفٍ، هو أن نبين بالتجربة والملاحظة اليومية، أن الأشياء التي تتغير أو تنقطع، والتي نزعم مع ذلك أن تظل هي نفسَها، هي فقط تلك التي تتكون من تتابع الأجزاء، التي يرتبط بعضُها ببعضٍ عن طريق التشابه أو التجاور أو السببية. ولما كان مثلُ هذا التعاقب يجيب بوضوحٍ عن تصورنا التنوعَ، فلا يمكن أن ننسب إليه هويةً إلا خطأً؛ ولما كانت علاقةُ الأجزاء، التي توقعنا في هذا الخطأ، ليست في واقعها سوى صفةٍ تخلق تداعيًا للأفكار، وانتقالًا للخيال سهلًا من فكرةٍ إلى أخرى، فلا يمكن أن ينشأ الخطأ إلا من التشابه، الذي ينتجه هذا الفعلُ الذهنيُّ في الفعلِ نفسِه الذي به نتأمل شيئًا واحدًا مستمرًا. إذن، فشغلنا الرئيس يجب أن يكون البرهنة على أن كل الأشياء التي ننسب لها هويةً، إنْ نحن ما اكترثنا بثباتها واتصالها، إنما تقوم هي على توالي أشياء مترابطةٍ.

ومن أجل ذلك، اِفْرِض أيَّ كتلةٍ من المادة، تكون أجزاؤها متجاورةً ومتصلةً، توجد أمامنا؛ فإنه أمرٌ واضحٌ هو أننا يجب أن ننسب لهذه الكتلة هويةً كاملةً، بشرط أن تستمر جميعُ الأجزاء دون انقطاعٍ وتستمر هي نفسها دونما تغير، مهما كانت الحركة أو التغير المكاني الذي قد نلحظه إما في الكل أو في أي جزء من الأجزاء. ولكن افرض أن جزءًا صغيراً جدًّا أو مهملًا انضاف إلى الكتلة أو نقص منها؛ فإنه برغم أن هذا يُشْبِه أن يدمر التدميرَ كلَّه هويةَ الكل، بالمعنى الدقيق الذي للكلمة، فإننا، لما هو كان يَنْدُر أن نفكر بهذه الدقة، لا نتردد أن نقول إن كتلةَ المادة هي ذاتُها، متى وجدنا التغير جدَّ تافهٍ ومُهْمَلٍ. إن مرور الفكر من الشيء قبل التغير إلى الشيء بعد التغير يكون سلسًا وسهلًا كثيرًا، حتى إننا يندر أن ندرك الانتقال، ونكون أميل إلى تخيل أنه ليس سوى رصدٍ مستمر للشيء نفسِه.

توجد حالةٌ لافتةٌ جدًّا تصاحب هذه التجربة؛ فإنه برغم أن تغير أيَّ جزء كبيرٍ في كتلةٍ من المادة يسوق إلى تدمير هوية الكل، فإنه يجب علينا قياسُ عِظَمِ الجزء، ليس القياسَ المطلق، ولكن بنسبته إلى الكل. إن زيادةَ جبلٍ أو نقصانِه لن يكون كافيًا أن يحدث تغيرًا في الكوكب؛ برغم أن تغير بضعِ بوصاتٍ ذاتها سيكون قادرًا على تدمير هوية بعض الأجسام. أمرٌ مستحيلٌ هو تفسير ذلك إلا بالتفكير في أن الأشياء تؤثر في الذهن، فتنقض أو توقف استمراريةَ أفعاله ليس بمقدارها الحقيقي، بل بتناسب كل واحدٍ منها مع الآخر؛ وبالتالي، لما هو كان هذا الانقطاع أمْرُه أن يجعل الشيء يكف أن يظهر هو نفسَه، فلا بد أن يكون التقدمُ غيرُ المنقطعِ للفكر هو الذي يشكل الهويةَ الناقصة.

إن هذا الذي تقدَّم تؤكده ظاهرةٌ أخرى؛ فإن أيَّ تغير في أي جزءٍ من الجسم كبيرٍ سبيلُه أن يدمر

هويته؛ ولكنه أمرٌ لافتٌ للنظر أنه عندما يكون التغير تدريجيًّا وغيرَ محسوسٍ، فإننا نكون أقل ميلًا إلى أن ننسب إليه التأثيرَ نفسَه. وواضحٌ لك أن السبب لا يمكن أن يكون سوى أن الذهن يشعر، إذ هو يتتبع تغيراتِ الجسم المتتاليةَ، بانتقالٍ سهلٍ من رصدِ حالة هذا الجسم في زمنٍ إلى رصدها في زمنٍ ثانٍ، فلا يدرك أيَّ انقطاعٍ في أفعاله. وإنما هو بهذا الإدراك المستمر ينسب إلى الشيء وجودًا مستمرًّا وهويةً.

ولكن مهما كانت الاحتياطات التي قد نتخذها في إدخال التغيرات تدريجيًّا، وجعلها متناسبةً مع الكل، فمؤكدٌ هو أنه متى انتهينا إلى ملاحظة أن التغيرات أصبحت كبيرةً، فإننا نتردد أن ننسب هويةً إلى مثل هذه الأشياء المختلفة. ومع ذلك، توجد حيلةٌ أخرى تمكننا من حث الخيال على التقدم خطوةً أخرى إلى الأمام؛ وذلك بأن يخلق إحالةَ الأجزاء بعضها على بعض، وتضافرًا يروم غايةً أو غرضًا مشتركًا؛ فإن سفينةً تَغيَّر جزءٌ منها كبيرٌ بإصلاحاتٍ متكررةٍ تظل هي ذاتَها، وليس يمنعنا تبدل موادها أن نعزو لها هويةً، لأجل أن الغاية التي التأمت لأجلها أجزاؤها هي عينها في كل تغيراتها، وتتيح انتقالًا للخيال سهلًا من حالةٍ للجسم إلى أخرى.

لكن هذا يظل أكثر لفتًا للانتباه، متى أضفنا ميل الأجزاء إلى غايتها المشتركة، وافترضنا أن بعضها يحمل لبعض العلاقة التبادلية بين السبب والنتيجة في جميع أفعالها وعملياتها. وهذا ما أنت واجده في جميع الحيوانات والنباتات؛ حيث ليس تحيل الأجزاءُ المتعددة إلى غرضٍ عام فحسب، بل أيضًا يعتمد بعضُها على بعض الاعتمادَ المتبادلَ ويرتبط بعضُها ببعضٍ. إن تأثير هذه العلاقة القوية هو أننا -برغم أن الجميع يجب أن يقر أن النباتات والحيوانات جميعَها يعتريها تغيرٌ كاملٌ في بضع سنين- نظل نحن ننسب إليها الهويةَ، في حين أن شكلها وحجمها وجوهرها قد تغيرت جميعُها التغيرَ أتمَّه؛ ألست ترى أن سنديانةً تكون نبتةً صغيرةً فتصير شجرةً عظيمةً إنما تظل هي السنديانةَ نفسَها، برغم أنه ما من جزيء من المادة أو شكلٍ من أجزائها قد ظل هو نفسَه. ويصير الرضيع رجلًا، ويكون سمينًا أحيانًا، ونحيفًا أحيانًا، دونما أي تغير في هويته.

ويمكننا أيضًا أن ننظر في الظاهرتين التاليتين المميزتين من حيث نوعهما:

فأما **الأولى**، فهي أنه برغم أننا اعتدنا أن نميز بين **الهوية العددية والهوية النوعية**[18] التمييزَ

(18) يقصد هيوم بالهوية النوعية هاهنا الهوية الكيفية. ولكن معنى الأولى غير معنى الثانية عندنا وفي الميتافيزيقا المعاصرة، إذ تفيد الأولى غير ما تفيده الثانية. ولما كان هيوم يقصد هاهنا الهوية الكيفية، فإنَّا نميز بينهما، فنقول: يكون شيئان «متماثلين كيفيًّا» إذا هما كانا يتشاركان الخصائص نفسَها (مثال ذلك كوبان متماثلان)، ويكونان «متماثلين عدديًّا» إذا هما كانا شيئًا واحدًا في زمانين لا شيئين (مثال ذلك الكوب الذي أمامي في زمانين). ومتى كان كذلك، أمكننا أن نقول إن شيئين متماثلان كيفيًّا إذا وفقط إذا كانا متشابهين تمامًا، وإنهما متماثلان عدديًّا إذا كانا شيئًا واحدًا والشيء نفسَه في زمانين. أُنظر:

Valerio Buonomo, «A brief guide to personal persistence», in *The Persistence of Persons: Studies in the metaphysics of per-*

دقيقَه، فإنه يَكْثُر أن نخلط بينهما الخلطَ، فنستخدم في تفكيرنا واستدلالنا أحدهما للآخر. ولما كان كذلك، فإن الإنسان الذي يسمع ضجيجًا متقطعًا ومتجددًا أحيانًا كثيرةً، شَأْنُه أن يقول إنه ما يزال الضجيجَ نفسَه، برغم أنه أمرٌ واضحٌ بيّنٌ أن الأصوات تملك هويةً نوعيةً أو تشابهًا فقط، وأنَّ لا شيء هو عينه عدديًّا سوى السبب الذي أنتجها. وممكنٌ هو القول بطريقةٍ مماثلةٍ، دون انتهاك خصوصية اللغة، إن كنيسةً كانت في سابقِ عهدها من آجر، قد انقضَّت وتهدَّمت، وأن الأبرشية قد عمدت إلى إعادة بناء الكنيسة عينها من حجرٍ، وبهندسةٍ حديثةٍ؛ فلا الشكل ولا المواد هاهنا هي نفسها، ولا شيء مشتركٌ بين الكنيستين سوى علاقتهما بسكان الأبرشية؛ ومع ذلك، فإن هذه العلاقة تكفي وحدها أن نقول إنهما الشيءُ عينُه. لكن، يجب أن نلاحظ أنه في هاتين الحالتين يبيد الشيء الأول بنحوٍ ما قبل ظهور الثاني؛ فلا تعْرِض لنا أبدًا، بهذه الطريقة، في أي وقتٍ من الأوقات، فكرةُ الاختلاف والتعدد؛ فنكون، لأجل هذا السبب، أقل ترددا في القول إنهما الشيءُ نفسُه.

وأما **الثانية**،فقد نلاحظ، برغم أنه، في سلسلةٍ من الأشياء المترابطة المتعالقة، أمرٌ ضروريٌّ هو بطريقةٍ ما ألا يكون تغيرُ الأجزاءِ مفاجئًا أو كليًّا، من أجل الحفاظ على الهوية، أننا، عندما تكون الأشياء بطبيعتها متغيرةً وغيرَ ثابتةٍ، نعترف بحدوث تحول مفاجئ أكثر مما يمكن أن يكون متسقًا مع تلك العلاقة. وبالتالي، لما هي كانت طبيعةُ النهر تقوم على حركة الأجزاء وتغيرها، برغم أن هذه الأجزاء تتغير التغيرَ كاملَه في أقل من أربعٍ وعشرين ساعةً، فإن هذا ليس يمنع النهر أن يظل هو نفسَه عدةَ عصورٍ؛ فإنَّ ما هو طبيعيٌّ وأساسيٌّ لأي شيء هو، بطريقةٍ ما، متوقعٌ؛ وما هو متوقعٌ يترك انطباعًا أقل، ويبدو أقلَّ أهميةً مما هو نادرٌ وخارقٌ للعادة. إن تغيرًا كبيرًا من النوع الأول [التغير المتوقع] يبدو في الحقيقة بدوًّا أقل للخيال من التغير الأضْأَل من النوع الأخير [التغير النادر والخارق للعادة]؛ ولما كان هذا التغيرُ الكبيرُ [المتوقع] تعطيلُه استمراريةَ الفكر أقل، كان تأثيره في هدمِ الهوية أقل.

فلننتقل الآن إلى تفسير طبيعة **الهوية الشخصية**[19]، التي أمست مسألةً في الفلسفة مهمةً، خاصةً في السنوات الأخيرة، في إنجلترا، حيث يدرسون جميعَ العلوم المستعصية بحماسةٍ وتفانٍ مخصوصين. وبدهيٌّ لك هاهنا وجوب الاستمرار في منهج التفكير نفسِه الذي نجح في تفسير هويةِ النبات والحيوان والسفن والبيوت، وهويةِ جميع المنتوجات المركبةِ والمتغيرةِ الصناعية أو الطبيعية[20]. إن الهوية

sonal identity over time (2018), V. Buonomo (ed.), Neunkirchen-Seelscheid, Editiones Scholasticae, pp. 7-18, P: 9.

(19) عندما نتحدث عن الهوية الشخصية، فإننا نتحدث عن الهوية العددية لا عن الهوية الكيفية.

Brian Garrett, *What is this thing called Metaphysics?*, Routledge, First published 2006, P: 121.

(20) إذا كان جون لوك يقول إن هوية الكائن الحي (النبات والحيوان) تختلف عن هوية الإنسان، وهذه وتلك تختلفان عن هوية الشخص، فإن هيوم يرى أن ما يصدق على هوية النبات والحيوان يصدق على هوية الشخص.

التي نعزوها لذهن الإنسان إنما هي هويةٌ متخيلةٌ فقط، وهي من نوعٍ يشبه ذاك الذي نعزوه لأجسام الحيوان والخضروات. ولما كان كذلك، فهي ليس تملك أصلاً مختلفاً، بل يجب أن تنشأ عن عمليةٍ للخيال مماثلةٍ على أشياء مماثلةٍ.

ولكن، خوفَ ألا تُقْنِع هذه الحجةُ القارئَ، برغم أنها حاسمةٌ تماماً في رأيي، فليتدبر الاستدلالَ التالي، الذي يظل أقرب وأكثر راهنيةً. أمرٌ بدهيٌّ هو أن الهويةَ التي ننسبها إلى الذهن البشري، مهما تصورناها كاملةً تامةً، ليست قادرةً على جمع الإدراكات المتعددة المختلفة في إدراكٍ واحدٍ، وجعلها تفقد خصائصَ تمايزِها واختلافِها، التي هي ضروريةٌ لها. ويظل صحيحًا أن كلَّ إدراكٍ متميزٍ، يدخل في تركيب الذهن، إنما هو وجودٌ متميزٌ، ومختلفٌ ومميزٌ ومنفصلٌ عن كل إدراكٍ آخر يزامنه أو يتلوه. ولكن، لما كنا نفترض -على الرغم من هذا التميز والانفصال- أن سلسلة الإدراكات توحدها كلَّها الهويةُ، فإنه أمرٌ طبيعيٌّ أن ينشأ سؤالٌ عن علاقة الهوية هذه: هل هي شيءٌ يربط إدراكاتنا المتعددة معًا الربطَ الواقعيَّ أم هي تربط فقط أفكار الإدراكات في الخيال؟ ولنتساءل بضربٍ من التعبير آخر، فنقول: هل نحن نلحظ متى تحدثنا عن هوية الشخص، رابطاً واقعيًّا بين إدراكاته أم أننا نحس فقط رابطاً بين الأفكار التي نكونها عن هذه الإدراكات؟[21] قد نحسم بسهولةٍ هذا السؤال إذا نحن تذكرنا ما تقدَّمنا فأثبتناه الإثباتَ العام، أن الفاهمة ليست تلحظ أيَّ رابطةٍ واقعيةٍ بين الأشياء، وأن وحدةَ العلة والمعلول نفسَها، متى تفحصناها بدقةٍ، تنحل هي ذاتُها إلى تداعٍ للأفكار عادٍ. ويلزم عن هذا الذي ذكرنا أن الهوية ليست في الواقع شيئًا ينتمي إلى هذه الإدراكات المختلفة، ويوحدها معًا، ولكنها مجرد صفة ننسبها إليها، بسبب اتحاد أفكارها في الخيال عندما نتأملها. والصفاتُ الوحيدةُ التي يمكن أن توحد الأفكارَ في الخيال إنما هي العلاقاتُ الثلاثةُ التي تقدمنا فذكرناها لك [عنيتُ التشابه والتجاور والسببية]؛ فهذه هي المبادئ المُوَحِّدة في عالم الأفكار، ودونها يشبه أن يكون كلُّ شيءٍ متميزٍ قابلاً للفصل بالذهن، ويمكن التفكير فيه منفصلاً، ويبدو منفصلاً عن كل شيء آخر انفصالاً يفوق انفصالَه عنه بعظيم الاختلاف والمسافات. وإذا تقرر هذا، فإن الهوية تعتمد على بعض هذه العلاقات الثلاث: التشابه والتجاور والسببية؛ ولما كانت ماهية هذه العلاقات تكمن في خلقها انتقالاً للأفكار سهلاً، فإنه يَلْزَم أن تصوراتنا عن الهوية الشخصية تَنْتُج كليًّا عن التقدم السهل والمتصل للفكر على طول سلسلةٍ من

(21) وقد ينبغي أن تعلم أن هذا السؤال هو نفسه الذي طرحه ديريك بارفيت في مقاله الهوية الشخصية والعقلانية لما هو تساءل: «هل واقعة الهوية الشخصية تقوم على بعض الوقائع الأخرى فقط؟ أم أنها واقعةٌ إضافيةٌ؟» أُنظر:

Derek Parfit, «Personal identity and rationality», *Synthese 53*, D. Reiclel Publishing Co., Dordrecht, Holland, and Boston, U.S.A, 1982, P: 227.

الأفكارِ المترابطةِ وفقَ المبادئ التي تقدمنا فذكرناها.

ولما كان ذلك كذلك، فإن السؤال الوحيد الذي يبقى هو: ما العلاقات التي تخلق هذا التقدمَ المستمر لفكرنا، عندما نتدبر في الوجود المتعاقب للذهن أو الشخص المفكر؟ وبيّنٌ لك من ههنا أنَّا يجب أن نقتصر على التشابه والسببية، ويجب أن نتخلى عن التجاور، الذي تأثيره أقل أو لا تأثير له في المسألة الحاضرة.

ولنبدأ **بالتشابه**، افرض أننا نستطيع أن نرى بوضوحٍ ما في سريرة شخصٍ آخر، وأن نلحظ تعاقبَ الإدراكات التي تشكل ذهنَه أو مبدأ تفكيره، ثم افرض أنه يحتفظ دائماً بذكرى جزءٍ كبيرٍ من إدراكاته الماضية، فإنه أمرٌ بدهيٌّ هو أنَّ لا شيء يمكن أن يسهم أكثر في إضفاء علاقةٍ على هذا التعاقب وسط كل تنوعاته؛ إذ ما الذاكرة إلا أن تكون ملكةً نبعث بها صورَ الإدراكات الماضية؟ ولما كانت الصورةُ تشبه بالضرورة موضوعَها، أَفَلا يجب أن يؤدي تكرار وضع هذه الإدراكات المتشابهة في سلسلة الفكر إلى نقل الخيال بسهولةٍ أكبر من رابطٍ إلى آخر، وجعل الكل يبدو كأنه استمرارٌ لشيءٍ واحدٍ؟ وفي هذا الخصوص، ليس تكتشف الذاكرةُ الهويةَ فحسب، بل تسهم أيضًا في خلقها، بخلق علاقة التشابه بين الإدراكات. والأمر هو نفسه، سواء اعتبرنا أنفسنا أو غيرنا.

أما **السببية**، فيمكن أن نلاحظ أن الفكرة الصحيحة عن الذهن الإنساني إنما هي النظر إليه بما هو نسقٌ من الإدراكات المختلفة أو الموجودات المختلفة التي يرتبط بعضُها ببعضٍ بعلاقة العلة والمعلول، والتي يخلق، ويدمر، ويؤثر، ويُعدّل بعضُها البعض تبادليًّا. تخلق الانطباعاتُ أفكارَها المطابقة، وهذه الأفكارُ تخلق انطباعاتٍ أخرى. فكرةٌ تطرد فكرةً أخرى، وتجلب فكرةً ثالثةً، فتطرد هذه تلك. وفي هذا الصدد، لست أستطيع مقارنةَ النفس soul بأي شيءٍ إلا مقارنتها بالجمهورية أو الدولة، حيث يتحد العديدُ من الأفراد بروابط متبادلةٍ من الحكم والتبعية، وينشأ عنهم أشخاصٌ آخرون ينتجون الجمهوريةَ نفسَها في التغيرات الدائمة لأجزائها. ولما كانت الجمهوريةُ الفرديةُ نفسُها ليس تغير أعضاءها فحسب، بل هي قوانينها ودساتيرها تغيّر أيضاً، فإنه يمكن، بالمثل، الشخصُ نفسُه أن يغير طباعَه وميولَه، وأن يغير انطباعاته وأفكارَه، دون أن يفقد هويته. ومهما كانت التغيرات التي تعتريه، فإن أجزاءه المتعددة تظل مرتبطةً بعلاقة السببية. وبيّنٌ لك من هاهنا أن هويتنا التي تخص العواطف تعمل على تأكيد هويتنا التي تخص الخيال، متى جعلت هي إدراكاتنا البعيدة يؤثر بعضُها على بعضٍ، ومتى هي منحتنا اهتماماً حاضراً بآلامنا أو ملذاتنا الماضية أو المستقبلية.

ولما كانت الذاكرة وحدها هي التي تعرفنا على استمراريةِ ومدى تعاقب الإدراكات، فيجب عدُّها، لأجل هذا الذي ذكرنا، مصدرَ الهويةِ الشخصيةِ؛ فلو لم نكن نملك ذاكرةً، ما كان لنا أن نملك أبدًا

أيَّ تصورٍ notion عن السببية، ولا، بالتالي، عن سلسلة الأسباب والنتائج التي تشكل ذاتَنا أو شخصَنا. ولكنَّا متى تحصَّلنا تصورَ السببية هذا من الذاكرة، أمكننا أن نمد سلسلةَ الأسبابِ نفسِها، وبالتالي هوية أشخاصنا، مدًّا يجاوز ذاكرتنا، وأمكننا أن نفهم الأوقات والظروف والأفعال التي نسيناها تماماً ولكننا يَعُمُّ أن نفترض أنها كانت موجودةً. فكم هي أفعالنا الماضية القليلة التي نتذكرها؟ ومن يستطيع أن يخبرني، مثلاً، ماذا كانت أفكارُه وأفعالُه في الأول من يناير 1715، والحادي عشر من مارس 1719، والثالث من غشت 1733؟ أم سيؤكد، لأنه نسي أحداث هذه الأيام النسيانَ أتمَّه، أن الذاتَ الحاضرةَ ليست هي ذاتَ الشخصِ نفسِه في ذلك الوقت؛ فيقلب، بهذه الوسيلة، جميع التصورات الرُّسَخِ عن الهوية الشخصية؟ وبيّنٌ لك من هاهنا أن الذاكرة ليس تخلق الهويةَ الشخصيةَ بقدر ما تكتشفها، بإطلاعنا على علاقة السبب والنتيجة بين إدراكاتنا المختلفة. وسيَلْزَم أولئك الذين يؤكدون أن الذاكرة تخلق هويتنا الشخصية الخلقَ أكملَه أن يعللوا قدرتنا على مدِّ هويتنا مدًّا يجاوز ذاكرتنا.

يقودنا هذا المذهبُ برمته إلى نتيجةٍ ذات أهميةٍ كبيرةٍ في هذه المسألة، أعني أن جميع الأسئلة المُحْكَمة والدقيقة عن الهوية الشخصية لا يمكن البت فيها أبداً، ويجب عدها صعوباتٍ نحويةً بدل عدّها فلسفيةً. تعتمد الهوية على علاقات الأفكار؛ وهذه العلاقات تخلق الهوية بهذا الانتقال السهل الذي تَعْمَلُه. ولكن، لما هي كانت العلاقات وسهولة الانتقال قد تتضاءل وتتناقص بدرجاتٍ غيرِ محسوسةٍ، فليس يوجد لنا معيارٌ صحيحٌ يمكننا من حل أي نقاشٍ يخص الوقتَ حين تتحصَّل حق اسم الهوية أو تفقده. إن جميع النقاشات عن هوية الأشياء المتصلة غير المنقطعة هي مجرد نقاشاتٍ لفظيةٍ، باستثناء مبدأ اتحادٍ خيالي أو وهمي تسوق إليه العلاقة بين الأجزاء، كما لاحظنا من قبل.

ولما كان ما قلته عن الأصل الأول عن تصورنا الهويةَ وعن التباس هذا التصور، يَصْدُق على الذهن البشري، فإنه يمكن أن يصدق على تصور البساطة مع وجود اختلافٍ يسيرٍ أو دونه. إن الشيء الذي تترابط أجزاؤه المختلفة المتواجدة معاً بعلاقةٍ وثيقةٍ، يؤثر في الخيال بالطريقة نفسها التي يؤثر بها شيءٌ بسيطٌ وغيرُ منقسمٍ تماماً، ولا يتطلب قدراً كبيراً من الفكر من أجل تصوره. وهذا التشابه في التأثير يجعلنا نعزو إليه البساطة، ونختلق مبدأً اتحادٍ يكون دعامة هذه البساطة، ومركز جميع أجزاء وصفات الشيء المختلفة.

وإذا تقرر هذا، نكون قد انتهينا من فحصنا أنساقَ الفلسفة المتعددة، أنساقَ العالم الفكري والأخلاقي؛ وقد ساقنا منهجُنا متعددُ الاستدلالِ إلى عدة مواضيع، إما أنها توضح وتثبت بعضَ الأجزاء السابقة من هذا الخطاب، وإما أنها تمهد الطريقَ لآرائنا التالية. لقد حان الوقتُ الآن للعودة إلى فحص

موضوعنا فحصاً أكثر دقةً، ومواصلة تشريح الطبيعة البشرية التشريحَ الدقيقَ، بعدما تقدَّمنا ففسَّرنا التفسيرَ وافيَه طبيعة حكمنا وفاهمتنا.

المراجع:

Brahami, Frédéric, «La généalogie du moi dans la philosophie de Hume: L'identité personnelle», in *Revue philosophique de la France et de l'étranger*, Presses Universitaires de France, 2001/2 Tome 126.

Buonomo, Valerio, «A brief guide to personal persistence», in *The Persistence of Persons: Studies in the metaphysics of personal identity over time*, V. Buonomo (ed.), Neunkirchen-Seelscheid, Editiones Scholasticae, 2018.

Garrett, Brian, *What is this thing called Metaphysics?*, Routledge, First published 2006.

Hume, David, *A Treatise of human nature*, Vol. I, Edited by Ernest Rhys, Everyman's Library.

MacNabb, D. G. C., *David Hume: His Theory of Knowledge and Morality*, Archon Books, Hamden, Connecticut, First Published 1951, Second Edition 1966.

Martin, Raymond and Barresi, John, «Introduction: Personal Identity and What Matters in Survival: An Historical Overview», in *Personal Identity*, Edited by Raymond Martin and John Barresi, Blackwell Publishing, 2003.

Norton, David Fate, «Hume», in *The Cambridge Dictionary of Philosophy*, General Editor: Robert Audi, Second edition, Cambridge University Press 1995, 1999.

Parfit, Derek, «Personal identity and rationality», *Synthese 53*, Copyright © 1982 by D. Reiclel Publishing Co., Dordrecht, Holland, and Boston, U.S.A.

حسن، عباس، النحو الوافي، الجزء الثالث، دار المعارف، مصر.

المرادي، الحسن بن قاسم، الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق فخر الدين قباوه ومحمد نديم فاضل، بيروت- لبنان، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1992.

هيوم، ديفيد، رسالة في الطبيعة البشرية، ترجمة عبد الكريم ناصيف، دمشق- سورية، دار

الفرقد، الطبعة الأولى، 2016.

Arabic reference

Ḥasan, ʿAbbās, al-naḥw al-Wāfī, al-juzʾ al-thālith, Dār al-Maʿārif, Miṣr.

al-Murādī, al-Ḥasan ibn Qāsim, al-Janá al-Dānī fī ḥurūf al-maʿānī, Ed: Fakhr al-Dīn qbāwh wa-Muḥammad Nadīm Fāḍil, byrwt-Lubnān, Dār al-Kutub al-ʿIlmīyah, St1, 1992.

hywm, Dīfīd, Risālat fī al-ṭabīʿah al-basharīyah, Ed: ʿAbd al-Karīm Nāṣīf, dmshq-Sūrīyah, Dār al-Farqad, St1, 2016.